الأدب الإسلامي والمشروع الحضاري

للباحث : د . محمد أحمد هيشور

موضوع بحث « الأدب الإسلامي والمشروع الحضاري » يأتي في إطار ما سمي « الأدب الحضاري » القائم على الإسهام في عرض البديل الحضاري من المنظور الإسلامي في اتجاه مواجهة هيمنة الآخر، فهو مشروع مقاوم، فيه شيء من التحدي، ولذلك اعتمد التحليل والتعليل والبحث عن حجج الإقناع أكثر من اعتماد النقل والسرد.

وحاول الأدب الحضاري تلمس سنن التأثير في الذات وفي الآخر لتوظيفها في اجتهادات التجديد، قصد تحقيق غايات المشروع الحضاري من المنظور الإسلامي الذي ألزمت طبيعته موضوع الدراسة بجملة خصوصيات.

وليس بالضرورة، أن يأخذ الباحث بمنهج واحد لدراسة أي ظاهرة، لأن المنهج ينبثق من طبيعة موضوع الدراسة الذي تتجاوب أفكاره وقضاياه مع الباحث، على نحو ما قمنا به بالاعتماد على بعض المناهج مثل : الوصفي، والتحليلي، والاستقرائي عند كل اقتضاء، وهو ما يمكن أن نطلق عليه « إجراءات التوفيق » أو التوافق الذي يأخذ من حسنات كل منهج، حتى يطاوع الباحث طبيعة الموضوع.

وفي الدراسة تصور يرى الإسلام حقيقة مطلقة تحتوي مفردات الوجود كلها بطريقة أو بأخرى، وهو ما لا تراه فيه توجهات الآخر الغربية وامتداداتها العالمية حتى في الثقافة الإسلامية ذاتها، كالعلمانية التي تقيس العطاء الإسلامي على عطاء المسيحية، وتحاول حصاره في المسجد كانحصارها في الكنيسة، بينما مازال الإسلام يسهم في توفير حوافز إبداع المشروع الحضاري الإنساني العام، ويجدد اجتهادات البشرية فيه، في الوقت الذي لم تستطع المسيحية الدفاع عن نفسها بحجج تستحق احترام أولي الألباب، ومن هنا، تختلف رؤية القراءة الإسلامية للوجود عن رؤية قراءة الآخر.

لقد حاول منهج الدراسة التخلص من رهط أفكار الآخر ومذاهبه المستوردة، والتحرر من تأثيراتها غير اللائقة، والتعامل معها حين الضرورة من منظور التصور الإسلامي، حتى تشخص هموم الأمة الإسلامية بمس من الأثر الإيماني العقدي، والإيمان بقدرة فكره وصلاحيته لكل زمان ومكان، شرط تحقيق انتمائه لتجربة مرجعية العالمية الإسلامية الأولى، وبخاصة أن دراسات كثيرة التزمت دلالة انتمائها الاصطلاحي، فيما أصبح يظهر مضافا إلى الحضارة كالانتماء الإسلامي، مثل الموقف الحضاري الإسلامي، والشهود الحضاري الإسلامي، والوعي الحضاري الإسلامي، إلى آخر ما تأسس عليه درس الانتماء الحضاري الحديث، بعدما كان يتناول مجزأ على مستوى مفردات منه، كالدرس الأدبي والتاريخي والفلسفي الذي منه نشأ درس المشروع الحضاري، ومازالت تتواصل دراساته في طرق جوانب منه، كالجانب الأدبي والاقتصادي والفكري، إلا أن جانبه الحضاري لم تتناوله إلا مباحث كتب ومقالات، تعد بداياته الأولى، أما الدراسات التي يفترض أن تتحدث في علاقة الأدب الإسلامي بمشروعات النهضة العربية الإسلامية فتكاد تنتفي، وإن وجدت أبحاث تشبه موضوع هذه الدراسة على نحو ما أورد حسين زروق في بحثه : «الأدب الإسلامي والتدافع الحضاري» بالإضافة إلى أبحاث متناثرة هنا وهناك في مستوى كتب ومباحث فيها ومقالات لم ترق إلى المستوى الأكاديمي، كما لم تجمعها ببلوجرافية دراسية .

ولعل من أهم الأبحاث التي شاركت الدراسة موضوع المشروع الحضاري . بمعزل عن ربطها بالأدب الإسلامي . فيما تناهى إلى علمي ما يلي :

- المشروع الحضاري الإسلامي لمحمد حسين فضل الله، وهو عبارة عن مدارسة بين المؤلف ومحمد عبد الجبار، تطرقت إلى بعض من قضايا المشروع الحضاري منها على سبيل المثال الأزمة الحضارية العالمية، والمشروع الحضاري والواقع القومي والوطني والإسلامي، والمشروع الإسلامي والمشاريع الأخرى.
- قراءة في ركائز المشروع الحضاري الإسلامي تأليف جمعة أمين عبد العزيز، كتاب أسهم في بناء مقومات المشروع الحضاري من المنظور الإسلامي، ومسّ جملة قضايا منها هوية الأمة الإسلامية واستقلالها الاقتصادي والسياسي، ومنهج الاعتدال في المشروع والتوازن بين المادة والروح، والعقل والوحي انطلاقا من شمولية الإسلام، فبيّن أنه من دعائم المشروع الحضاري الفهم الإسلامي الصحيح، واعتماد قيمه ومبادئه في شيء من الواقعية الجماهيرية، وتجديد فكر الأمة، واعتماد التربية والإعداد سبيلا لتحقيق أهداف المشروع الحضاري.

حظيت الرسالة بشرف مناقشة نخبة من الأساتذة الدكاترة هم:

- أ.د. عبد المالك مرتاض، رئيس لجنة المناقشة، جامعة وهران.
- أ.د. عبد القادر فيدوح، مشرفا ومقررا، جامعة البحرين.
- أ.د. حسن الأمراني، مناقشا، جامعة وجدة.
- أ.د. مختار حبار، مناقشا، جامعة وهران.
- أ.د. محمد طول، مناقشا، جامعة تلمسان.

● حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة لمؤلفه عبد الحميد الغزالي، وعلى الرغم من أن العنوان لم يتضمن مصطلح «حضاري»، إلا أن قصد المؤلف ظاهر من موضوعه: إذ يعتقد المؤلف أن مشروع الأمة الإسلامية الحضاري مازال أجزاء منثورة لا يربطها رابط، ولا يجمع بينها قاسم مشترك متفق عليه.

● فلسفة المشروع الحضاري هو بحث دكتوراه قدمه صاحبه محمد أحمد جاد عبد الرزاق في جزأين، تناول روح المشروع الحضاري العربي الإسلامي منذ حملة نابليون بونابرت الفرنسية، التي حاولت دخول العالم الإسلامي من البوابة المصرية سنة ١٧٩٨م بدعوى نشر مشروع حضاري، وقد جوبهت بمقاومة ونقد حركات الإصلاح، وإن كان فيها من الصدمة ما أيقظ من حس العالم الإسلامي: إلا أنها لم تطرح المشروع الحضاري المدعى.

وما عدا دراسة فلسفة المشروع الحضاري لمؤلفه محمد أحمد جاد عبد الرزاق، فإن الدراسات الأخرى لم يكن لها أي طابع أكاديمي، فهي عبارة عن كتابات ومقالات.

من هذا المنظور تأتي أهمية هذه الدراسة في جمعها أشتات أفكار موضوعها «المشروع الحضاري» الذي ظل تتوزعه مباحث في ثنايا (كتب ومقالات، ومجلات، وجرائد) وحاولت الدراسة الإجابة على أسئلة طالما طرحت، وتكرر طرحها في جدلية الأدب الإسلامي والمشروع الحضاري وما بينهما، وتبديد مقولة من يرى الإسلام عقيدة وعبادة، وليست له القابلية بل قدرة الإجابة عن أسئلة العصر، وأن ما في هذا المشروع من فكر لا يتجاوز تخمينات عقدية غيبية، قد لا تصمد أمام منطق الواقعية، وحجج العقل، وحقائق العلم، بل لا تستطيع أن تبرح موقع اعتقاد صاحبها.

فالفكر الإسلامي في نظر هؤلاء ليس له ما يخرج به على الناس من أفكار جديدة، وبدائل معرفية في شكل مشروعات وبرامج يدخل بها ميادين الحياة التربوية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية وسواها.

ولذا، فإن من أهم ما في هذه الدراسة بيان حقيقة العرض أو الطرح الحضاري من منظور الفكر الإسلامي، المرشح البديل عن الآخر في ميادين الحياة الإيديولوجية كلها.

وقد خطت هذه الدراسة في ميادينها خطوات منذ بدايات أفكار المشروع الحضاري من المنظور الإسلامي، فزادت في بلورتها، وتأسيس مقوماتها، وتنمية مكوناتها، فسارت بها نحو الاكتمال، حتى أشرفت على جمع شمل الكثير من أجزاء مفردات المشروع الحضاري، كمشروع الأدب الإسلامي والمشروع الفلسفي، والمشروع الاقتصادي الذي يبدو قد خطا خطوات أكثر من غيره، وبخاصة في تجربة البنوك الإسلامية.

وقد جاء هذا بعد أن تعددت أساليب الخطاب الإسلامي، فكان منه الخطاب الوعظي والعقدي والتربوي والسياسي، وتأخر الخطاب الحضاري الذي يجمع هذه الخطابات الجزئية كلها في خطاب عام هو بمثابة استدراك أو إلحاق.

وأعتقد أن هذا التصور يحتاج إلى اجتهاد فكري من أهل الاختصاص، كل في ميدانه، يتعامل مع أفكار الأشياء والحقائق والقضايا من منطلق المرجعية الإسلامية تعاملا منهجيا من منظور المشروع الإسلامي الحضاري؛ لأن كل أمة تترشح لطرح بديلها الحضاري من مؤهلاتها الذاتية ومن منظورها للوجود ورؤية مفرداته.

وجاء هذا البحث في ستة فصول : جعل الفصل الأول «الإطار المعرفي العام» منطلقا للدراسة. امتدت أجزاء منه في الفصول التي تلته، فكان لها بمثابة جذع مشترك، وقد كان الحديث فيه عن مسألة أساس هي الانتماء المعرفي، وبخاصة الانتماء الإسلامي منه.

ثم تعرض الفصل الثاني إلى «وعي المشروع الحضاري»، الذي تلمس بدايات الوعي بالمشروع الحضاري لدى كتّاب الإسلامية الحديثة، وتتبّع بواعثه، إلى أن أفصح عنها نوابغ رواد النهضة الحديثة، وكأن المشروع الحضاري الإسلامي البديل كان في انتظارهم، ليدشنوا بدايته، ويعلنوا عن انطلاقه، حتى يستأنف نشاطه إلى جوار مشروعات الإيديولوجيات الأخرى.

بينما طرق الفصل الثالث أهمية المزج «بين الأدب والحضارة» في ظاهرة البينية في الحياة الطبيعية كالذي بين فصول السنة، وفي الحياة المعرفية كالذي بين مفردات منظومة الحضارة، فيما بين الأدب والإيديولوجيا ومفرداتها، وما بين الأدب والتكنولوجيا ومفرداتها.

في حين طرح الفصل الرابع «المرجعية المعرفية الأدبية العامة»؛ أي مسألة تأسيس المرجعية من المنظور الإسلامي في ضوء التجربة الأولى، وفي مقدمتها كيفيات الأخذ من القرآن الكريم وحسه الحضاري المطلق، حيث اشتق المشروع الحضاري الإنساني الأول، والتمست طرق تطبيقاته في الواقع من توجيهات الوحي، فأنجزت تجربة الحضارة العربية الإسلامية التاريخية، ومنها تجارب الانفتاح الأولى في العصر الأموي والعباسي الماثلة أمام تجربة العصر الحديث الثانية التي قادها نوابغ الأمة في محاولات الإفادة من تجربة الآخر.

أما الفصل الخامس فقد تعرض إلى «أداة المشروع الحضاري الأدبية» الذي أكد على أن الأفكار تظل نظريات بل أحلاما إن لم تحدد وسائل تحقيقها، وتلتزم أدوات تطبيقها، ومنها الأداة الأدبية المتميزة عن أدوات مفردات الحضارة الأخرى باعتمادها العاطفة أسلوبا، ولغة خطاب، وهو ما توافر لديها مما لم يتوافر للخطاب المباشر الذي قد يلجأ إلى الحجة العقلية الجافة، أو إلى المادة التجريبية العلمية، أو إلى الجرد والإحصاء، لتحقيق مقاصده المرجوة.

وجاء الفصل السادس والأخير، ليتحدث عن «مقاصد المشروع الحضاري»، وكانت مباحثه . في تقديرنا أوضح، وكأنها أفصحت عما تضمنته الفصول السابقة، وحققت مراميها، فكانت كأنها نتائج البحث، تصلح لتكون كل واحدة منها دراسة أكاديمية مستقلة، وقد جعل هذه الدراسة مفتوحة على مشارف أبحاث جديدة، ليتواصل البحث، وهذا شأن دراسات كثيرة حيث توصل مراحل البحث بعضها ببعض، ليؤسس اللاحق على السابق، حتى لا تظل الدراسات تختصر شرحها، أو تشرح مختصرها من غير تجديد.

وهكذا، نكون قد حاولنا عرض صياغة رؤية نقدية جديدة . في تقديرنا « الأدب الإسلامي والمشروع الحضاري»، وإن كانت هذه الدراسة ما تزال تحتاج إلى من يعمّق استنتاجاتها، ويضيف إلى استفساراتها، بطرائق يراها الباحث مناسبة لتقصي حقيقة بلورة المشروع الحضاري في منظور ما يستجد من مناهج.

ولذلك، فليس في استطاعة هذا البحث أن يلمّ بكل ما يمكن أن يقال في موضوعه؛ بل حاول أن يكتفي بإثارة الإشكالات التي صنعت معالمه الكبرى، وقد لا يطابق هذا المقام إلا القول المأثور « لكل شيء إذا ما تم نقصان»، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على البشر.

وبعد المناقشة التي دامت حوالي أربع ساعات من يوم ٢٠٠٥/٧/٣م فازت الرسالة باستحقاق نيل شهادة الدكتوراه بتقدير مشرف جدا مع التهنئة والتوصية بالطبع ■